الشخصية الشاذة (1)

السيكوباتية

اختلال الشخصية ألوان وألوان، ولكن حديث اليوم مقتصر على نوع واحد من الخلل، هو المكنى بالسيكوباتية، لأنه يكاد يكون أحدثها إلى المعرفة، ولأنه لا يزال بمنأى عن إلمام علماء النفس إلمام اقتدار يوطئ خضد شوكته وعلاج صرعاه.

وكان اعتمادي في إعداد هذا الفصل على كتاب جليل نفيس هو في جدة الأمر فتح في العلم الحديث وابتداء في دروبه، وتطلع إلى اجتلاء آفاق في العلم لا تزال حتى اليوم مبهمة على الفكر، مستعصية على الإدراك. وأعني بهذا الكتاب «مشكلة السلوك السيكوباتي» للأستاذ الدكتور صبري جرجس.

واستخدام تعبير «السيكوباتية» راجع إلى تحمسه للترجمة، وتأبيه في التعريب، فلم يكن من مندوحة سوى أن يكتب بالعجمة، لأن العجمة وإن نبا عنها اللسان العادي، أفصح وأجمل من سواها، وما ذلك إلا لأن كلمة السيكوباتية مركبة من مقطعين: صدرها psycho ومعناه النفس وعجزها pathy معناه السلوك فجماع معنى الكلمة سلوك المرء أو تصرفه.

ولكن هذا التعبير يختصر معنى العلة والانحراف، ولسوف نحاول أن نجلو هنا أعراض هذه العلة واتجاه ذلك الانحراف، معولين على هذا السفر فهو في دسامته ووفرة مادته يغني عن أسفار ومصنفات.

وأعجب ما في علة السيكوباتية أن مرضاها كتب عليهم حتى اليوم أن يظلوا بغير علاج، فلا الطب العقلي بقادر على أن ينصفهم المرء، ولا الطب البدني يستطيع أن يشفي سقمهم، وهم لذلك مرفوضون إما لأن يحسبوا مخرفين مخبولين فيحالوا الى مستشفيات الأمراض العقلية عن جهالة وعدم تبصر، وإما أن يعتقلوا مجرمين فتكون السجون خاتمة مطافهم ويكون العقاب الصارم جزاءهم. وهذا إمعان في الإجحاف بهم، وإيغال في تشديد

(1) حديث ألقي في الشهر الماضي في دار رابطة الأدباء في القاهرة.

أو سلوكاً معادياً للمجتمع ، وقد تجد تعبيراً في السرقة والتشرد والخلق المريب والميل إلى التكبّر عليهم ، لأن مرضهم وإن كانت له مظاهر تتطرف إلى الإجرام ، ليس إجراماً ، وإن كانت له أعراض تنحصر في العته والخبل ، ليس عتهاً ولا خبلاً . فهو مرض بين بين ، ومرضاه يجب أن يكونوا في منشآت خاصة هدفها الرئيسي أن تهذب من جموحهم إلى الشر والإيذاء ، وأن تخفف من حدة سلوكهم العدواني المتطرف ، ما دام العلاج الشامل الشافي ما يزال متعذراً .

والسيكوباتي عدو للمجتمع ، لا يسلم حتى نفسه من عداوته لنفسه . وسلوكه هذا يكون عن غير وعي ، وعن غير وجدان ، لأن سلطانه على نفسه مفقود ، ولأن زمام حياته ليس في يديه ، ولأن تصرفاته تكون في الأغلب تصرفات انسياقية مصحوبة بأعمى مشبع بطفولية في الاتجاه الفكري واستغراق في لذائذ عارضة منحطة ، وسير في الحياة بلا هدف ، أو وراء هدف صوري لا وجود له .

إنه قد يشعل النار في نفسه لا رغبة في الانتحار كما يفعل الرجل السوي ، بل حباً في رؤية النار تحصد جسمه حتى يغدو هشيماً . فالمعروف عند العلماء أن « الانتحار » ينطوي على « الإرادة » ، أما السيكوباتي فهو من الإرادة جد مجرد .

وهو قد يعرض مع ذاته عربدة جنسية ، ويسرف في تجليد عشيرة إسرافاً شائناً ولكنه مع ذلك لا يشبع ولا يرتوي ، فيتصل بالخدم والساقطات ثم يعود إلى مباشرة لذته الخاصة مسلوب الإرادة ذليلاً .

وهو قد يسرق ، لا حباً في السرقة فقط ، يتمتع بما يسرقه ، بل حباً في حرمان الآخرين من الانتفاع بالمسروق ، وتلك هي حاسة الإيذاء والعدوان في الرجل السيكوباتي

وهو لا يقدر على التكيف مع المجتمع ، ولا يستطيع أن ينظم لنفسه عادات صالحة ، وإذا بدا منه ميل عارض إلى الانتقام فذلك لتتهيأ له بعد ذلك أسباب الاضطراب وعدم الاستقرار . ولا يفلح التقريع ولا العقاب ولا النصح ولا الزجر في إصلاح أمره ، لأن فطرته متعوّدة على الاضطراب والخلل .

وطبيعي أن لا يتذكر السيكوباتي وعداً أو ينجز عهداً أو يتتبع من كونه رقم فيها أو أن يعي عبر الحياة . فلو كان يملك إرادته ، لاستطاع أن يحقق شيئاً من ذلك ، أما وهو على ما هو عليه من عجز في الإرادة ، فلا يسعه أن يأخذ من الماضي شيئاً أو أن يقتبس من دروسه عبراً .

وأنماط السيكوباتية كثيرة متنوعة متشعبة ، ومظاهرها يلتقي جميعاً قاسم مشترك

هو « العدوانية » ، وقد نجد هذه المظاهر تعبيراً في سلوك المريض سلوكاً غير اجتماعي والعدوان والاعتداء الجنسي والاضطراب الخلقي واقتحام الشئون الخاصة بالآخرين اقتحاماً جافاً دنيئاً ، والتماس المتع التافهة الشخصية اقتناص تيلاق ثمن ، والاستغراق في احتساء الخمر ومعاقرة أنواع المخدرات الأخرى .

وقد يعن لامرئ أن يسأل : لِمَ لا يندرج السيكوباتي في عداد المجرمين ما دام سلوكه عدوانياً وما دام يشارك المجرم في السرقة أو في الاعتداء أو في إشعال النار أو سواها .

والجواب على ذلك أن المجرم المحترف يدبر لنفسه دائماً وسائل الهرب ، ويقدّر أمامه جميع الاحتمالات حتى ينجو بعد اقتراف جريمته ويفلت من كل عقاب . ومعنى هذا أن له من الارادة ما يجعله يفطن الى الأخطار التي يتعرض لها فيقي نفسه منها ، كما أن له من السلطان على النفس ما يجعله يفكر تفكيراً منتظماً مرتباً يمكنه من وضع خططه والترصد لتحقيق غايته .

أما السيكوباتي ، فهو يقترف جريمته في غير قصد أو تعمد ، علاوة على أن افتقاره الى القدرة على السيطرة على ارادته يجعله في أحايين كثيرة أول من يصاب بجريرته وأول من يلحقه أذى من تصرفه المنحرف ، كأن يحرق نفسه أو يكسر عظماً في منزله أو يمزق ثيابه وما الى ذلك .

والسيكوباتيون جميعاً — على ما يقول الدكتور صبري جرجس — يتفاوتون من حيث مظاهر سلوكهم ، ولكنهم جميعاً متشابهون في « القالب » الذي تجري عليه حياتهم . . . القالب الذي يتميز بنشاط اندفاعي لا اجتماعي أو مضاد للمجتمع ، مستمر ومتكرر لكسب وقتي غير محسوس ، ليس فيهم من يقدّر الجميل أو يكترث للعطف ، وليس فيهم من يعرف شعور التبعة تجاه الغير ، كلهم على تفاخر طفلي وتعاظم نرجسي في الذات وغرور سطحي يضل بهم عن الاستبصار وصواب الحكم ، لا ينتفعون من التجربة ، ولا يرتدعون من العقاب ولا يثبتون على هدف ، ولا يصلون الى قدر ما من التكيف مع المجتمع ، ولا يعرفون الندم ولا يحسون العار ، ولا يشعرون بشعور الخطيئة .

وليس داء السيكوباتية مما يصيب طبقة دون طبقة ، أو فريقاً دون فريق ، بل هو داء ثبت من التجربة أن مرضاه فيهم الغني المترف ، والمتوسط المعتدل ، والفقير المعوز . ولكن الأمر الذي لا ريب فيه هو أن هناك عاملين لهما دخل في الاصابة بهذا الداء ، وأعني بهما الوراثة والبيئة . وآية ذلك أن معظم السيكوباتيين ثبت من تتبع سير حياتهم أن بوادر العلة بدت في فجر الحياة ، وأن أفراداً من الأسرة المقربين أو غير المقربين كانوا منحرفين انحرافاً ذهنياً ، فمنهم من كان مصاباً بالعُصاب Neurosis أو الفصام Schizophrenia أو سواهما من

أمراض العقل. وفي هذا ما يدلّ على أن جبلة السيكوباتي معتلّة حتى قبل الولادة أو الفطام.

ومما يذكر كذلك أن ثقافة المرء لا تقيه داء السيكوباتية، وإن كان معظمُ المصابين به لم يرق تعليمهم مرتبة التعليم الثانوي، وذلك طبعاً راجعٌ الى عدم قدرتهم على موائمة أنفسهم مع النظم المدرسية والأساليب التعليمية موائمة ناجحة. فقد استبانت للدكتور صبري جرجس حقيقة كانت مجهولة من عملاء غريبين كثيرين، فاتّضح له من علاج أحد الأطبّاء أنه مريضٌ بالسيكوباتية. وتعليلُ إصابة مثل هذا الرجل ذي الثقافة العالية يرجع الى أن مرض السيكوباتية كان يبادئه فتمكّن له أن يتابع نموه، ولكنه لم يبرأ منه قط، وما حياته التامة تصبح اضطرابُ شخصيته فتجعل منه عنصر خطر في المجتمع يهدمُ من أسسه لبنات، ويقوّض من دعائمه أعمدة وقوائم.

بل إن النبوغ في نواح معينة لا يكون للمرء عاصماً من داء السيكوباتية، وحسبك أن تعرف أن من المصابين بهذا الداء رجالاً وسيدات سجّل التاريخُ لهم خلوداً، وأقيمت لهم التماثيل والتماثيل وطار صيتهم كل مطار، وأسبغ على بعضهم طابع القديسين والأبرار. ومن الأمثلة على ذلك جان دارك بطلة فرنسا الشهيدة — وهي اليوم في عداد القديسات — ونابليون الأول امبراطورُ فرنسا الفاتح، ولورانس المنقبُ ملك العرب غير المتوّج، وريتشارد فاجنر الموسيقيُّ الذائع الاسم، وفولتير المفكر الحرّ الكبير. وقد قال الباحث «هندرسن» إن بين نماذج السيكوباتية نموذجاً مبتدعاً أو خالقاً creative وهو يضمّ كثيرين من العلماء والرجال المبرّزين والعباقرة والمحامين والمؤلفين والفنانين والمرتقين وذوي الكفاية الممتازة والمواهب العالية. وهؤلاء كما أسلفنا يعدون من مهادنة الداء لهم ما يفسح المجال أمام إبراز مواهبهم الأصيلة الفطرية؛ وقد تمتنع هذه النقائص على الغير فتنقصو ما أو تخفف منها ولا سيما بعدما يغدو أصحابها في ذمة التاريخ.

فالسيكوباتية اضطرابٌ خطير في الشخصية وتفكك في عوامل تكاملها، لأن الشخصية المتكاملة تعرفُ الزمن باعتباره وحدةً موصولةً غير مجزأة وتمثله خبرةً حيةً تزيد في تماسكها وتجانسها وتتضّح عنه سلوكاً متزناً واضحاً يستفيد الماضي ويستلهم المستقبل إذ هو يستجيب للحاضر. أما الشخصية السيكوباتية، فهي لا تمثلُ الزمن خبرة متصلة حية تؤلف بين مجموع خبراته وترتقي به من الفردية البيولوجية الى الشخصية المتكاملة. فالسيكوباتي لا يعرف من الزمن إلاّ الحاضر؛ فلا يتمثل الماضي خبرة كانت، ولا يعد المستقبل خبرة سوف تكون. فهو يعيش في الحاضر وحده، منقطع الصلة بما كان، معدوم الارتباط بما سيكون. وما دام هذا دأب السيكوباتي أمكن لنا أن ندرك لمَ يتسمُ بالاندفاعية في

السلوك والتقلب في التصرفات ، ولم يجمن الاتانية الخطيرة رائده في حياته ، ولم يهتدي في سيره بتجارب تعوزه في وتئر في الوجدان وتجرد من الخجل وفساد في الحكم ، وملل دون المثابرة وعجز عن الانتفاع بالتجربة ، وإفراط في الكذب وسوء التقدير .

فمشكلة السيكوباتية إذن مشكلة خطيرة ، لا من حيث أنها داء يصيب أفراداً بأوزاره فيجعل تصرفاتهم غير مقدرة للعواقب ، ولا من حيث أن المجتمع بمنيه الضيق والواسع يتأثر بفعل هذه العلة تأثيراً هدّاماً مدمراً ، بل من حيث أنها معضلة لا يزال الطب العقلي أمامها حائراً . فقد أمكن دراسة عدد كبير من الحالات المرضية عند مرضى هذا الداء والاستعانة بهذه الدراسة في تبويبهم الى أبواب ونماذج من حيث السن والجنس وحالة الأسرة المادية ورتبة الثقافة الى ذلك . وأمكن معرفة ظواهر الداء وهي التي أسلفنا الاشارة إليها في شيء من الايجاز ، ولكن العلماء لم يستطيعوا بعد كشف دواء أو عقار يُبرىء من هذه العلة ويرد على المريض صحته . فعلى الطب العقلي اليوم أن يستطرد في بحوثه أملاً في أن يوفق ذات يوم — والمرجو أن يكون قريباً — لعلاج شاف للسيكوباتية .

* * *

وهنا قد يسأل المرء : أما من مسكن يجدي النوع ولو الى حين ، وكيف يعامل هؤلاء المرضى في الخارج وفي مصر ؟

والجواب على ذلك نقتبسه من الدكتور صبري جرجس ، فهو يقول إن السيكوباتية مشكلة تتحدى . . . تتحدى الاوضاع القائمة في العلاج الطبي وفي التوجيه الاجتماعي معاً .

ثم يسأل : ما هي حقيقة السلوك السيكوباتي ؟ أهو اختلال خطير في تكامل الشخصية يدخله في عداد الاضطرابات الذهنية psychosis ، أم هو مشكلة سلوكية تستجيب استجابة مناسبة للوسائط العلاجية المألوفة ؟ أهو حالة مؤقتة تزول مع الزمن أم أنه حالة دائمة تلازم صاحبها ما امتد به الأجل ، مستعصية على ما نعرف من طرائق التقويم والعلاج ؟ ثم ماذا يكون من أمرنا مع السيكوباتي ؟ أنعده مريضاً بحاجة الى العلاج أم نفرض عليه العلاج فرضاً ؟ أو نعده مجرماً يستحق القصاص ويعامل بالزجر والعقاب ؟ أو نعده آناً الى هؤلاء وآناً إلى أولئك كيفما رجحت الظروف والاسباب ؟ وأين مكان السيكوباتيين : أهو المستشفى ، وأي مستشفى ؟ أهو السجن ، وأي سجن ؟ أهو مكان آخر لا إلى هذا ولا الى ذاك ؟ وما هو مصيرهم ، ما حظهم من القبول والحرية ؟ أيكون عليهم أن يظلوا على الدوام في المستشفى

الذي يودعون اياه ، مقيدة حركاتهم ، مهدورة حرياتهم ، ممنوعين من السلوك إلاّ بمقدار ، أم يسمح لهم بالانطلاق الى حيثما يشاءون ؟

ويجيب الكاتب على هذه الأسئلة بأن أمل مرضى السيكوباتية معقود على اتباع منهج تكاملي معمم في العلاج : أي العمل على تضامن جميع الوظائف البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية للفرد بحيث تؤدي في النهاية الى اتزان سلوكه وتجانس مظاهره . ومعنى ذلك أن الاقتصار على معالجة الفرد من ناحية واحدة من هذه النواحي الثلاث لا يؤدي الى النتيجة المرجاة . ولقد جربت نواح كثيرة للعلاج منها العقاقير ومنها الصدمات التشنجية ومنها الجراحات ، ولكنها جميعاً لم تؤد الى ما يقطع على هذا الداء خط الرجعة ، ويكتب له خذلاناً أمام فتوحات العلم الحديث .

* * *

ويرى رجال العلم أن مكان السيكوباتي إنما هو مستشفى للطب العقلي فلا السجن مكان له ولا المصحة تستطيع مد يد العون له . وقد أنشئت في الخارج « عيادات سيكولوجية » كثيرة تساعد على التخفيف عن هؤلاء السيكوباتيين حدة نزواتهم وتسعى جادة لتهيء للتعقل والفطنة مكاناً في حياتهم . والنظام الذي تسير عليه هذه العيادات يقضي بأن يمنح كل مريض فرصة دراسة حياته وتطور مرضه عن كثب وتقدم لهم جميع المغريات التي تحثهم على الابانة عن ممكناتهم والافصاح عن قدراتهم وتمهد أمامهم سبيل التكيف مع المجتمع والتدرج صعداً في طريق الاتزان واتساق الهدف — ولو الى حد — مع المجتمع .

ومن المؤسف أن « الجهالة الرسمية » تخيم على عقول ذوي الحل والربط في شأن طائفة السيكوباتيين في مصر . فمعظم المرضى منهم إما أن يعاملوا معاملة المجرمين فيزج بهم في السجون مع أنهم ليسوا بمسؤولين عما اقترفت يداهم ، وإما أن يصبحوا « مجانين » فيحالوا الى مصحات عقلية لا تجديهم نفعاً . وجدير بنا وقد استطاع الاطباء العقليون أن يشخصوا داء السيكوباتية ويعينوا أعراضه ومظاهره ، أن نفكر تفكيراً جدياً في تهيئة الوسائل الطبية التي من شأنها مساعدة هؤلاء المرضى على أن يألفوا السياق الاجتماعية شيئاً فشيئاً وعلى أن يصبحوا أداة نافعة ، ولو بعض الشيء ، في بناء صرح المجتمع .

وقد يكون مجرد دفع مضرتهم عن المجتمع كسباً اذا تعذر الانتفاع بهم انتفاعاً ايجابياً بنائياً .

وديع فلسطين